البادية العربية (١)

ARABIA DESERTA

ما نجا حتى العلماء من تسخير الحكومات في ايام الحرب العظمى . فالحكومة وان جازت السابق على عهد كانت تسخر علمهُ لاغراضها السياسية والحربية . ومن العلوم المسخرة في تلك الايام المشرقيات ومن المسخرين — ماجورين كانوا او متطوعين — ثلاثة من الاوربيين المعروفين اليوم لان اقلامهم تشتت عليهم. ثلاثة هم الكرنل لورنس ، وهو اكثرهم شهرة واقلهم علماً ، ومؤلف هذا الكتاب ، وهو اكثرهم علماً واقلهم شهرة ، والمستر فلبي الذي هذا وذاك في الذي في الشهرة

على انهُ لم يفز من الثلاثة فوزاً باهراً ، من الوجهة الحربية والسياسية ، غير واحد وهو لورنس . ولم يفز من الثلاثة ، من الوجهة العلمية ، غير واحد هو الاستاذ موزيل . اما من الوجهة الادبية الصرفة فالثلاثة متساوون في العظمة والكرامة — الثلاثة من المسلمين في سلطنة الادب

كتب لورنس كتاباً سجعهُ بالبارود ، ورصعهُ بالديناميت — كتاباً حربيًّا كلهُ طعن وضرب ونسف وتدمير . هو قصة عثرة هذا الزمان ، عثرة الانكليزي ، ولكنها خلوٌ من الشعر . وكتب فلبي رحلتهُ في مجلدين مطولين في اسلوب ان يقلد الرحالة الانكليزي الشهير هنري دوطي خرج عن البساطة المحمودة ، ولم يدرك الصناعة المنشودة . والف الاستاذ موزيل كتاباً ضخمة باسلوب عادي محلٍّ لا يستغوي من القراء غير من لهُ غرض علمي او مصلحة سياسية او اقتصادية في البلاد العربية

رحل هذا المستشرق المعروف بين العرب « بالشيخ موسى » ، بضع رحلات في القسم الشمالي من شبه الجزيرة . فكانت الرحلة الاولى في انحاء واطراف الحجاز الشمالية في سنوات ١٨٩٦ — ١٩٠٢ ، والرحلة الثانية في النجاد والاراضي الواقعة

(١) هو عنوان الكتاب تأليف المستشرق التشكوسلوفاكي ألويز موزيل (Aloes Musil) استاذ اللغوس الشرقية في جامعة تشارلس ببراغ . طبع باللغة الانكليزية في مطبعة الحكومة (Sta'ni tiska'an, Prague) لجمعية الجغرافية الاميركية بنيويورك (American Geographical Society New York) عناية ومساعدة المجمع العلمي التشكوسلوفاكي والمستر كراين الاميركي المشهور بحبه للعرب

بين الجوف جنوباً واياذين على الفرات (١٩٠٨ — ١٩٠٩) والثالثة في تدمر وجوارها (١٩١٠) والرابعة (١٩١٣ — ١٩١٥) هي الرحلة السياسية من قبيل الدول الوسطى في الحرب العظمى.

اما كتبهُ فقد كُتبت اولاً باللغة الالمانية. ثم تعاون، على ما يظهر، المعهدان التشكوسلوفاكي والاميركي، اي المعهد السلفي ببراغ والجمعية الجغرافية بنيويورك (وكان المستر كراين اساس هذا التعاون) على طبعها باللغة الانكليزية. فظهر في السنة الماضية المجلد الاول منها في البتراء وشمالي الحجاز، وهوذا بين يدينا المجلد الثاني في بادية العرب الشمالية، وسيتبعهما الثالث والرابع.

يضم هذا الكتاب، المطبوع طبعاً جميلا متقناً، المزين بالرسوم، المشفوع بعدة خارطات كبيرة، الى ثلاثة اقسام، وله ملحق طويل هو كتاب في نفسه.

اما الاقسام الثلاثة فاولها واكبرها هو ثمرة الرحلة الكبرى في الشمال. والثاني هو حكاية رحلة صغيرة في العراق من عين التمر الى قصر الأُخَيضر فالنجف. وفي القسم الثالث جزء من رحلته الاخيرة (١٩١٤—١٩١٥) التي رحلها من الشام الى الزبيبات (في قلب الحماد) ومنها الى الجوف فحائل فالمشهد (النجف)

وفي الملحق نبذات تاريخية عدة، منها نبذة طريفة عن عرب الشمال في عهد الاستيلاء الاشوري على سورية. ونبذة عن دومة الجندل (الجوف) قبل الاسلام وبعده. واخرى عن طريق القوافل القديمة والحديثة في القسم الشمالي من شبه الجزيرة والنبذة الثامنة (الاخيرة) في الطريق الذي سلكهُ خالد بن الوليد من العراق الى سورية بموجب روايات المؤرخين العرب كالطبري وابن عساكر وابن العبري والبلاذري وغيرهم

ان في هذا الكتاب اذن بحراً من العلوم التي تهم المستشرقين وتفيد المتأدبين من ابناء العرب. وقد برز لنا في ما يؤثر منهُ امران اولهما العذاب الذي يقاسيهِ المستعرب في طلب العلم، وثانيهما التدقيق الذي يتحراهُ في تقدم ثم في تسجيلهِ للناس. وطريقة الاستاذ موزيل هي الطريقة العلمية الالمانية التي لا تخرج في مثل هذه الرحلات عن المحسوس، وقلما تسمح للنفس التي يروعها الجمال — جمال الشكل وجمال المعنى — ان تعاون الضمير الذي لا يهمهُ غير الحقيقة الحسابية

٢

كانت دمشق باباً للرحلات الثلاث التي يحمل هذا الكتاب اخبارها، فجاءها

الرحالة في اول عهد الدستور العثماني ، ورجاعه عند ما اصبح الدستور ساطوراً لضرب اعناق اعداء الاتحاديين (١٩١٢) ثم جاءها في نوفمبر ١٩١٤ وقد امست الدولة العثمانية سيفاً بيد الالمان . فكان في الرحلتين الاوليين عالماً . وكان في الرحلة الثالثة سياسيًّا او مسخّراً للدعاية الالمانية

ولكن عملهُ الدائم المحاسن والفوائد هو عملهُ العلمي الجغرافي ، والفضل الاكبر في تمهيد سبيله وحمايته في البادية يعود الى صديقه الصدوق الامير نوري الشعلان شيخ مشايخ الروَله. على أن تلك الحماية لم تكن دائماً فعالة. ومن ابن لها ان تكون كذلك واعداء النوري يوشكون كثيرون في بادية الشمال وفي الجنوب . فلم يكن للروَله من القبائل الموالية غير القليل كبعض الحويطات وولد علي والعمارات

وحل الاستاذ موزيل (الشيخ موسى) من الضمير في خريف ١٩٠٨ الى المياذين على الفرات ، ومنها نزل الى الحماد ، ومنها الى وادي سرحان فالجوف ، فالهوجا حيث كان الامير مخيماً . ومن الهوجا عاد شمالاً حتى وصل الى اللاّه[1] قرب جبل عنَيز (عنزَى) [2] جنوباً بشرقٍ منهُ — ثم عاد جنوباً الى سكاكة وقارة فاجتمع بنوري ثانية هناك ، ورافقهُ شمالاً ، فمرج على قصر الازرق وقصر الحلابات، وعاد الى الشام بعد سبعة اشهر من ارتحاله منها

سبعة اشهر في البادية ، وفي ايام لم تكن البادية كما هي اليوم آمنة. لم يكن ابن سعود قد استولى عليها كلها . فلا عجب اذا كانت الاسفار محفوفة بالاخطار . فقد كانت قافلة الاستاذ موزيل عرضة للصوص والغزاة ، فوقعت في ايديهم مراراً ، ونجت منهم بفضل الكرام الشجعان من العرب ، وفي مقدمتهم الامير نوري وابنهُ نوّاف ، ورشيد بن سمير من مشايخ ولد علي

ولم يكن الاستاذ موفقاً بخدامه وادلائه ، فسلبه احدهم ، وخانهُ الآخر ،وهجرهُ الثالث . وكان الصالح منهم « يصلي ويغلي رأسهُ » فسرت الى الاستاذ « بركاته » ، والعياذ بالله ! ثم أُسر واُهين في سكاكه، ومرض ورفيقه الجغرافي بالحمى . هي المشقات في البادية بعضها ينسيك البعض الآخر، ويلازمك بعضها ملازمة الظل. فيوماً ترتشف

---

(١) لاّه (وقد جاءت في معجم البلدان الالاّه) كانت قديماً احد القبائل بين عرب الحيرة الذين كانوا يدينون للفرس وعرب الشام الذين كانوا يدينون للرومان

(٢) جبل عنزى هو اليوم اقصى نقطة في الشمال في حدود المملكة النجدية

المناخ من المرحلات في تعوّر الآبار ، ويوماً تكاد تهلك من الظمأ . يوماً تأكل الضب والقراب ، ويوماً تسف برغيك مجبولاً بالتراب . تحرقك في النهار شمس الهاجرة ، وتتألم في الليل من شدة البرد ، وانت لا تأمن ربعك بشبّ النار خوف ان يهتدي اليكم اللصوص

سبعة أشهر من هذه الإخطار والمشقات ، ثم عاد الشيخ موسى الى الشام ظافراً بما كان ينشده من العز — والغنيمة الكبرى السلامة

وقد ألمّ هذا العالم بالعلوم التي تختص بالاماكن المياه التي نزلها والتي سمع بها ، وبمن نزلها من الاقدمين ، وبمن ينزلها اليوم من العربان ، وبالطرق اليها القديمة والحديثة — طرق الفاتحين من بلاد آشور وطرق القوافل من الشرق الى الغرب — مستشهداً بما اكتُشف في بابل من الآثار الآشورية في اواخر القرن الماضي ، وباقوال العرب المؤرخين منهم والشعراء ، ومصححاً في بعض الاماكن اغلاط ياقوت الجغرافية واغلاط الطبري وغيره التاريخية

اما وصفه للبلاد — جبالها وتلولها واوديتها وشعابها وآبارها وغدرانها وسبخاتها وخبّراتها وبراكينها وآثار البراكين والقلوع المكونة من الحمم — فهو وصف علمي تام اي وصف جيولوجي جغرافي دقيق . الا انهُ لا يخلو في بعض الاماكن من الخيال الشعري ، كوصف الحاد عند الغروب (صفحة ٢٣) والخبرة (٧٦) وشجر الغضى في النفود (١٤٩) وقد قال ان نار الغضى تدوم تحت الرماد عشر ساعات لا غير

واليك مثالاً من وصفه العلمي . قال في القرت التي كتبها خطأً ، او كما يلفظها البدو ، بتسكين الراء ا : « القرت تل تكلهُ كتكل المائدة ، ذو طبقات من مختلف التربة بعضها اشد من بعض . والطبقة العليا هي غالباً اشد من الطبقات الاخرى تحتها ، تتلين هذه للشتاء والرياح ، وتتفتت ، فينحت ما فوقها ، فيتكسر صخوراً وحجارة هي التي تراها مبعثرة في السهل حولها (اي حول القرت) »

ومن فوائد الكتاب لمن يروم درس القبائل ، او لمن لهم اشغال معها ، ما جاء فيه من تقويم واحصاء عرب الرولة والعمارات والفدعان وولد علي فقد ذكر بطون كل قبيلة وافخاذها ، ومشايخها ومضاربها ، والاماكن التي تربع وتصيف وتشتي فيها . واهم ما جاء في هذا الباب احصاؤهُ لعرب الصلبه الذين تضاربت فيهم آراء العلماء والمؤرخين تُقسم الصلبة الى اقسام تدعى بآل . كآل ماجد في جوار الكويت ، وآل جميل

في القصيم ، وآل بسّاق في جوار حائل ، وآل وذيح وآل راضي في الحماد الخ . عددهم كاملاً ثمانية عشر بطناً ، وعدد خيامهم كلها نحو مائتي وخمسين خيمة . والصلبة تدفع « الخوة » للبدو المجاورين لها لقاء الحماية . ولكل قبيلة من قبائل العرب الكبيرة شيخ خاص بذلك — هو ضابط الارتباط بين تلك القبيلة والصلبة المقيمين في ديرتها أو في جوارها

كان هؤلاء العربان من غير العرب . وقد قالوا في ذلك اقوالاً هي كلها او جلها من باب التخمين . فقد يكونون من بقايا الصليبيين في هذه البلاد . او كما قيل للاستاذ موزيل وقيل لنا — وهو الارجح — انهم دخلوا البلاد العربية من جهة الحسا . فقد يكونون لذلك من بقايا الصابئين

ومن محاسن هذا الكتاب ان اسماء الاعلام والاماكن والآبار مضبوطة كلها بقدر ما يستطيع الاجنبي ضبطها . فيمكن القارئ العربي — اذا عرف القاعدة — ان يردها الى اصلها دون ان تلتبس عليه السين والضاد مثلاً ، او الطاء والتاء ، او الدال والضاد

على انهُ ، من وجهة انكليزية ، يُنتقد على المؤلف انهُ في الطبعة الانكليزية لم يتبع القاعدة المصطلح عليها في اكسفورد والجمعية الملكية الاسيوية ، والتي اصبحت شائعة بين المستشرقين والادباء الذين يكتبون في الموضوعات الشرقية . واكبر شواذهم في هذا الباب انهُ عبر عن الياء بالجيم J وهي في الانكليزية لا تؤدي معناها في الالمانية

فالقارئ الاميركي او الانكليزي الذي يقرأ Dmejr'to Al-Mijadin لا يستطيع ان يلفظ الكلمة الاولى ، ويقول في الثانية المجادين لا الميادين . فكان ينبغي للمؤلف والمحرر ان يستعيضا عن هذا الحرف بان Y فيكتبان Yamama مثلاً لا Jamama او Zabibijjat لا Zabibiyat

ومما يزيد في تضخم الكتاب وتضجر القارئ تدقيقٌ في بعض الامور التي لا تفيد احداً . مثال ذلك مما لا تخلو صفحة منهُ : « من الساعة ١١/٠٨ الى الساعة ١١/٢٢ استرحنا . وفي الساعة ٢/٤٥ بعد الظهر وصلنا الى شعب الغرّى شمالي آبار الشيشية » « رعت جمالنا من الساعة ٩/٥٦ الى الساعة ١١/٤٢ »

وهل ينقص من الكتاب او من العلم شيء نافع اذا أُهمل مثل هذا التدقيق في الاستراحة والرحيل ، وفي مرعى الاباعير ؟

امين الريحاني

في الجزء الثاني فصل آخر فيه بيان لما فعله موزيل لاستمالة العرب للدول المتوسطة وكيف فاز عليه لورنس في ذلك